حول تحقيق مؤلف "الرسالة العذراء" المنسوبة لإبراهيم بن المدبر

للدكتور محمود على مكى

فى سنة ١٩١٣ وقع الأديب والعالم العربى الكبير الأستاذ محمد كرد على رحمه الله على مجموعة مخطوطة قديمة من الرسائل كانت فى حوزة الشيخ طاهر الجزائرى . ومن هذه المجموعة نقل رسالة تحمل عنوان « الرسالة العذراء » ، ونشرها فى القاهرة ضمن مجموعة « رسائل البلغاء » ناسباً إياها إلى الكاتب الوزير العباسى إبراهيم بن المدبر .

ثم آلت مجموعة الرسائل التى كانت من بينها « الرسالة العذراء » إلى المكتبة التيمورية فى دار الكتب المصرية وأصبحت تحمل رقم ٨٠ (مجاميع تيمور) وعدد هذه الرسائل إحدى عشرة رسالة ، وكانت الرسالة العذراء هى الثامنة منها ، وأذكر أن الرسالة التاسعة كانت هى التى وجه بها ابن القارح إلى أبى العلاء المعرى ، فأجابه عليها برسالة الغفران ، وهى التى اتخذتها السيدة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) أصلاً لنشرتها لها مع رسالة الغفران فى دار المعارف .

ومنذ هذا التاريخ تعددت طبعات « الرسالة العذراء » ، فقد طبع الأستاذ محمد كرد على « رسائل البلغاء » مرارا وكان آخر هذه الطبعات — فيما أعلم — الطبعة الرابعة فى سنة ١٩٥٤

كذلك اهتم المرحوم الدكتور زكى مبارك بهذه الرسالة اهتماماً خاصاً فى أثناء إعداده رسالة الدكتوراه التى تقدم بها لجامعة السوربون عن « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » ، فقدم « الرسالة

(*) ألقى البحث فى الجلسة العاشرة ليوم الأربعاء ٢ / ٣ / ١٩٨٨ م .

العذراء » مع دراسة بالفرنسية إلى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ، ثم أعاد طبع نصها العربى مستقلا مع مقدمة بالفرنسية فى دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١ بعنوان : (Étude critique sur la Lettre Vierge d'Ibn al - Mudabbir)

وبعد ذلك بسنوات عاد لنشر الرسالة للمرة الثالثة الاستاذ أحمد زكى صفوت فضمنها مجموعته الكبيرة التى تقع فى أربعة أجزاء « جمهرة رسائل العرب فى العصور العربية الزاهرة » . وتقع الرسالة العذراء فى المجلد الرابع من هذه المجموعة (ط . القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧) بين صفحتى ١٩٩ و ٢٤٢

وهكذا نرى كيف ظفرت هـذه الرسالة الصغيرة باهتمام ثلاثة من أقطاب البحث الأدبى على مدى ربع قرن ، إذ أنها كانت تقدر بحق أثراً من الآثار المبكرة لأحـد كتاب القرن الثالث الهجرى فى النقد الأدبى والكتابة الفنية ولهذا فقد عنى بها المؤلفون القدماء ، وكان من أول هؤلاء ابن عبـد ربه (ت ٢٣٨ ـ ٩٤٠) الذى نقل نحو شطرها فى كتابه « العقد الفريد » ، وتلاه من الأندلسيين ابن السـيد البطليوسى (ت ٥٢١ ـ ١١٢٧) الذى نقل بعض فقراتها عن (العقـد) ـ فيما يبدو ـ فى كتابه « الاقتضاب » الذى شرح به « أدب الكتاب » لابن قتيبة (الذى كان يدعى فى المشرق « أدب الكاتب ») . وتلاه ابن الأبار البلنسى (ت ٦٥٨ ـ ١٢٦٠) الذى أورد منها فقرات أخر فى كتابه « إعتاب الكتاب » . وأما فى المشرق فقد تكرر أخذ المؤلفين عنها حتى عصر متأخر . فقد نقل عنها النويرى فى « نهاية الأرب » ثم القلقشندى فى « صبح الأعشى » .

وبهـذا نرى كيف عدت « الرسالة العذراء » مرجعاً لمن يشتغلون بصناعة الإنشاء والكتابة الفنية منذ تأليفها فى منتصف القرن الثالث الهجرى حتى القرن التاسع . ولم يقلل من قيمتها ولا من اعتماد الكتاب على ما تضمنته من قواعد مرور هذه القرون المتطاولة على الرغم من التطور الكبير الذى لحق صناعة الإنشاء خلال هذا الزمن .

ولم تكن عناية الباحثين المحدثين بهذه الرسالة دون ذلك ، وقد رأينا

كيف اختصها الدكتور زكى مبارك بدراسة مستقلة ، واهتم بها بعد ذلك كل من تعرضوا الدراسة تاريخ البلاغة العربية ، ولا سيما فى المرحلة الأُولى من حياتها . فعدها بروكلمان فى « تاريخ الأدب العربى » « أول ما صنف فى صناعة النثر » ، وَرَأْىُ أستاذنا الدكتور شوقى ضيف فيها قريب من ذلك فيما عرضه حولها فى كتابه « تاريخ الأدب العربى ـ العصر العباسى الثانى » . وعلى نهج الدكتور شوقى ضيف جرى كل من تعرض بالبحث لبواكير التأليف فى البلاغة العربية ولتاريخ فن النثر .

وعنوان الرسالة ـ كما جاء فى أصلها المخطوط ـ هو « الرسالة العذراء فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة » ، فهى تتألف من شقين : الأول يتعلق بالشكل ، ونعنى به الجزء الذى أفرده المؤلف لصنعة الكتابة بصفتها حرفة ومهنة ، فاهتم فيه بآلة الكتابة وأدواتها وفصل الحديث عن الدواة والمداد والقلم وسكين البرى والخط وأنواعه والإعجام والشكل والقراطيس وطرق إلصاقها وختمها وما إلى ذلك من دقائق صنعة الكاتب . وأما الشق الثانى فهو المتعلق بالمضمون ، وفيه يتحدث عن شروط الكتابة الجيدة ، وفى هذا الجزء تنتشر مباحث هى من صميم النقد والبلاغة . ولعل المؤلف من خير من مثلوا هذا الاتجاه النقدى فى تاريخ البلاغة العربية من وجهة نظر تلك الطائفة التى مارست الكتابة ممارسة عملية ، وهى طائفة كتاب الدواوين المترسلين .

ويختلط هذان الجانبان فى الرسالة بغير نظام ، إلا أن المؤلف كان واعياً لضرورة معالجتهما معاً حينما وضع العنوان الفرعى لرسالته « . . . فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة » فهو عنوان دقيق يصور محتوى الرسالة حول الكتابة بشقيها : مضمونها وشكلها .

وليس من شأنى الآن تلخيص الرسالة أو عرض مادتها ، فطبعاتها كثيرة متعددة ، وإن كنت أرى أنها

بعدما توفر لدينا من حقائق حول مؤلفها وثقافته وأساتذته وما نقل عنه – تحتاج إلى تحقيق جديد : هو ما أعددته بالفعل وهيأته للنشر .

على أن الذى يهمنى فى هذا المقام هو تصحيح نسبة الرسالة ، وأبدأ بإثبات ما ورد على عنوانها فى الأصل المخطوط الذى اعتمد عليه الأستاذ محمد كرد على حينما نشرها لأول مرة ، وهو مخطوط كان ملكا للشيخ طاهر الجزائرى كما ذكرت : فقد جاء فى الاصل « لابى اليسر إبراهيم ابن محمد الشيبانى » ، أى أن النسبة كانت واضحة صريحة والمؤلف مذكورًا بكنيته واسمه ونسبه بغير لبس ولا التواء . والغريب فى الأمر أن الأستاذ كرد على لَم يُعَنِّ نفسه بالبحث عما إذا كان أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيبانى هـذا شخصية حقيقية أو زائفة ، ولعله – رحمه الله – عنَّى نفسه ولكن المصادر لم تسعفه آنذاك . فإذا به ينسب الرسالة بغير تردد إلى من ظنه المؤلف الحقيقى ، أى إلى أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبيد الله المعروف بابن المدبر (الذى عاش بين سنتى ٢١١ و ٢٧٩ / ٨٢٦ – ٨٩٢) . وقَبِلَ ذلك منه الناشران التاليان للرسالة ، وهما الدكتور زكى مبارك والأستاذ أحمد زكى صفوت ، وتابعهم على ذلك كل من تناولوا الرسالة بالبحث والدراسة ، دون أن يطرح أحد من هؤلاء موضوع نسبتها للمناقشة من جديد .

وهذا أمر غريب حقا ! فليس بين الاسم المثبت على الأصل المخطوط والاسم الذى قطع به الأستاذ كرد على إلا الاتفاق فى اسم الرجل واسم أبيه ، أما الكنية والنسب فمختلفان . وكان ذلك الاختلاف جديرا بأن يثير بعض الشبهات ولكن الناشر الأول لم يتوقف كثيرا عند هذه المسألة ، ولعل السبب فى ذلك هو أنه رأى فى الرسالة قرائن تدل على أنها أُلفت فى القرن الثالث الهجرى وأن صاحبها يبدو كاتبا محترفاً متصلاً على نحو ما بكبار الكتاب البغداديين فى أواسط هذا القرن ،

فلم يخطر بباله آن يوجد إبراهيم ابن محمد آخر غير ابن المدبر ، أما العلماء التالون للأستاذ كرد على — وعذرهم أضيق من عذره — فقد لاحظ بعضهم ذلك الاختـلاف ، ولكنهم حاولوا حل المشكلة بطريقة تلفيقية . فبروكلمان يسمى المؤلف أبا إسحاق بن المدبر ويضيف إلى ذلك أنه كان يكنى أيضاً بأبى اليسر . والأستاذ أحمد زكى صفوت يرى أن فقرات كثيرة من الرسالة قد وردت بنصها فى « العقد » لابن عبد ربه تم فى نهاية الأرب للنويرى وصبح الأعشى للقلقشندى ؛ ويلاحظ أن كل هؤلاء المؤلفين ينسبونها لمن يدعونه بالشيبانى . فيحل المسالة بجرة قلم قائلا : « والظاهر أنه — أى ابن المدبر — ينتمى إلى شيبان بالولاء » .

وهكذا نرى كيف يتسرع هؤلاء العلماء الأجلاء بترجيح ما لم يستند إلى نص ولم تقم عليه حجة ، إذ لم يزعم أحـد من مترجمى ابن المدبر أنه كان يكنى بأبى اليسر و لا أنه كان ينتمى فى شيبان ؛ وإنما هى محاولة لتطويع اسم المؤلف الحقيقى لما بدر إلى ظنونهم حتى يستقيم لهم ما أصروا عليه من نسبة الرسالة إلى ابن المدبر .

والذى تبين لنا بعد البحث والتنقيب أن أبا اليسر ابراهيم بن محمد الشيبانى شخصية حقيقية تردد ذكرها فى كثير من المصادر الشرقية والمغربية والأندلسية وأنه كان أديباً كاتباً مغامرا جوالاً استطاعت الدعوة العبيدية الفاطمية أن تجنده فى خـدمتها ، فاتخـذت منه داعية وجاسوساً ، ثم كافأه عبيد الله المهدى بأن اتخذه أول كاتب ووزير له حينما انتصرت دعوته فى أفريقيـة ، وأنه هو صاحب تلك « الرسالة العذراء » التى نسـبت خطأ لابن المـدبر . ونص الرسالة وما ورد فيها يتفق تماما مع هذه النسبة ، ويدل على نفى نسبتها للكاتب الوزير العباسى ابن المدبر . وسنعرض الآن باختصار لحياة هذا الأديب التى كانت على جانب عظيم من الغرابة والطرافة

وأوفى ترجمة عثرنا عليها لأبى اليسر إبراهيم بن محمد الشيبانى الذى كان يعرف أيضاً بالرياضى هذه التى نجدها فى كتاب « التكملة » للمؤلف الأندلسى المشهور ابن الأبار القضاعى البلنسى (ت ٦٥٨ / ١٢٦٠) وقد نقل مادتها عن مؤرخين سابقين نص عليهم ، منهم الأندلسيان سكن بن إبراهيم الكاتب (الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، أى معاصرا لأبى اليسر) والمؤرخ المشهور عريب بن سعد القرطبى صاحب « صلة تاريخ الطبرى » وهو من مؤرخى القرن الرابع ، وأخيرا المؤرخ الإفريقى إبراهيم بن القاسم القيروانى المعروف بالرقيق (المتوفى بعد سنة ٤١٧ / ١٠٢٦) . وقد نقل عن ابن الأبار هذه الترجمة المقرى فى « نفح الطيب » . ويلى هذه الترجمة فى القيمة ما نجده حول أبى اليسر المذكور من أخبار قيمة فى « رسالة افتتاح الدعوة » للقاضى النعمان بن محمد (ت ٣٦٣ / ٩٧٤) ، وفى « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى (الذى كتب فى أوائل القرن الثامن الهجرى) ونضيف إلى ذلك ما ورد حوله فى كتاب « أخبار مجموعة » لمؤلف أندلسى مجهول عاش فى القرن الرابع ثم ما نقله عنه ابن عبد ربه فى كتاب « العقد » .

ولد أبو اليسر الشيبانى الرياضى فى بغداد سنة ٢٢٣ (٨٣٨) ، ولم تفدنا المصادر بشىء حول نشأته الأولى فى دار الخلافة ، ولكن القائمة الطويلة التى يثبت فيها مترجموه أسماء أساتذته تدل على أنه قضى صباه وشبابه فى بغداد وأنه كان ذا موهبة أدبية مبكرة ، وأنه اتصل بكبار شعراء عصره فى أواسط القرن الثالث الهجرى ، ومنهم أبو تمام ودعبل بن على وعلى بن الجهم والبحترى . وقد زعم أبو اليسر بعد ذلك أنه روى عن أبى تمام ديوان شعره ، ولكن ذلك أمر يبدو مستحيلا ؛ فقد كان عمره عند وفاة أبى تمام لايجاوز ثمانى سنوات ، على أننا رأينا من تتبع حياته أنه كان رجلا كثير التهويل بمن يزعم أخذه عنهم من أدباء الشرق ، ولا يبعد أن تكون روايته عن أبى تمام إحدى هذه الدعاوى العريضة التى كان يصطنعها أمام متأدبى

إفريقية والأندلس . كذلك يظهر أنه أخذ عن عدد من كتاب الدولة العباسية من أمثال سعيد بن حميد رئيس ديوان الرسائل على عهد المتوكل وسليمان ابن وهب وزير المهتدى والمعتمد وأحمد بن أبى الطاهر طيفور صاحب تاريخ بغداد .

ونعرف من ترجمته أيضاً أنه تلمذ على المؤلفين الكبيرين أبى عثمان الجاحظ وأبى محمد ابن قتيبة واحتقب بعض كتبهما ، كما أخذ عن أكبر عالمين فى النحو واللغة فى عصره ، وهما المبرد وثعلب رأسا مذهبى البصرة والكوفة . ويذكر مترجموه — على سبيل الإطراف — أنه « كتب — على كبره — كتاب سيبويه كله بقلم واحد ما زال يبريه حتى قصر فأدخله فى قلم آخر وكتب به حتى فنى تمام الكتاب » ونعرف من نص ورد فى « الرسالة العذراء » أنه أخذ أيضاً عن الطبيب المشهور على بن ربَّن الطبرى صاحب كتاب « فردوس الحكمة » . وهكذا توافرت لأبى اليسر ثقافة جامعة متنوعة رأى أنها تؤهله لكى يتولى منصباً من مناصب الكتابة فى حاضرة الدولة العباسية غير أنه لم يوفق لذلك ، فقد كان أمثاله من هؤلاء المتأدبين كثيرين تحفل بهم الدواوين ، وكان أبو اليسر رجلا طموحاً يتعجل النجاح والشهرة فلم يسعده حظه بذلك . يقول أحد مترجميه إنه اضطرب فى المشرق ، فأعيته وجوه الرزق ، مما حمله على التفكير فى الهجرة إلى المغرب ، وما زال حتى انتهت به الرحلة إلى الأندلس .

ويقول صاحب « أخبار مجموعة » حول وفوده على هذه البلاد :

« فقصد الأندلس ، وافتعل كتاباً على لسان ابن الشيخ بالشام وألسنة عامة أهل بلده ، بكل ما أمكنه من الاستدعاء للخلافة وذكر تقارب الدولة فلما ورد على الأمير محمد فهم أنه محتال متعيش شحاذ ، فأمر بتوسيع نزله ، وأمضى ذلك له بطول مكثه ». وابن الشيخ المذكور فى هذا النص هو عيسى ابن الشيخ الشيبانى الذى كان من كبار رجالات الدولة العباسية وقوادها ،

وكان قد تغلب على الشام فى سنة ٢٥٢ (٨٦٦) وأعلن خلع طاعة الخليفة المعتمد وأوشك على أن يستقل بعمله كما فعل أحمد بن طولون فى مصر . وكان ببلاد الشام آنذاك حزب أموى كاره للخلافة العباسية متجه ببصره إلى تلك الدولة الأموية التى جددها عبد الرحمن بن معاوية الداخل فى الأندلس منذ أكثر من قرن من الزمان . وهذا هو ما جعل أبا اليسر يصطنع ذلك الكتاب الذى زعم أن أهل الشام قد حملوه إياه بصفته سفيرا لهم إلى الأندلس يستدعون للخلافة أى يُعَرِّضون له بإعلان طاعتهم للأمير ، الأندلسى . ولهذا فقد وضع أبو اليسر ذلك الكتاب على لسان القائد ابن الشيخ الثائر فى الشام على الخلافة العباسية فى ذلك الوقت .

غير أن الأمير محمد عبد الرحمن الذى نعرف عنه أنه كان حريصاً حذرا لا يتورط فى مغامرة غير مأمونة العواقب لم يكن لينخدع بذلك الكتاب الذى اصطنعه أديبنا المغامر ، فعرف حيلته ، ولكنه مع ذلك كان كريما فأوسع نزله لا سيما بعد أن أعجب بأدبه وثقافته ، ولندع صاحب « أخبار مجموعة » يكمل لنا الخبر ، يقول ؛ « ثم وصلت له (أى لأبى اليسر) إلى الأمير محمد كتب يسأل فيها الإذن له بعد طول مقامه ، استحسنها الأمير محمد واستلطفها . فأدخل وزيره هاشم بن عبد العزيز واستشاره فى أمره وقال له : هذا إنسان طالب معيشة تولدت له بها هذه الحيلة ، فإن صرنا إلى تصديقه ومجاوبته على حسب كتبه اتخذنا عند بنى هاشم مضحكة ومزراة . وإن كذبناه وحرمناه وقد احتل جنابنا فلؤم مشهور وفعل غير مشكور . وقد رأينا فيما خاطبنا به عن نفسه تأليفا وتجويدا بالغا يستحق به معروفنا ثم أمر له بخمسمائة دينار وازنة وبكتاب ليس فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم » .

وهكذا انتهت سفارة أبى اليسر الرياضى إلى قرطبة ، فنراه يخرج منها عائدا إلى المشرق فى رفقة عدد ممن توثقت صلته بهم فى الأندلس من طلبة العلم كانوا متوجهين إلى

بلاد الشرق . وفى الطريق فتح أبو اليسر خطاب الأمير محمد ، فلما رآه بياضا عرف أن حيلته لم تنطل عليه . وواصل أبو اليسر الرحلة ، فحل فى طريقه مع أصحابه الأندلسيين فى القيروان ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٠ (٨٧٤) . وهناك اتصل بقاضيها الحنفى سليمان ابن عمران . ولنذكر أن الدعايات السرية الإسماعيلية كانت تضطرب آنذاك فى كل أنحاء الشمال الأفريقى مهيئة الأذهان لظهور إمام علوى « يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » . ونعتقد أن الدعاة الشيعة قد استطاعوا فى هذه الأثناء أن يجندوا أبا اليسر لدعوتهم ويتخذوه عميلا لهم .

وربما دلّنا على ذلك أنه حينما وصل إلى مصر وكانت آنذاك تحت حكم أحمد بن طولون آثار شكوك أجهزة الدولة ، فقبض عليه وأودع السجن ويتم القصة واحد من الرفاق الأندلسيين الذين صاحبوه فى رحلته من الأندلس إلى مصر ، فيقول :

« فاتصل بنا خبره ، ووجب علينا فى رعاية الصحبة زيارته وتأنيسه . فلما انصرفنا من صلاة الظهر يوم الجمعة ذهبنا إلى صلته وقصده بمكانه فسألنا عن الحبس فهدينا إليه . فلما وقفنا بالباب كشفنا عنه ، فوُصِف لنا موضعه ، فدخلنا إليه ندعو له . فقال لنا : هل حبِّستم معى ؟ فقلنا له : ولم ذلك ؟ قال : من دخل حبس ابن طولون لم يخرج منه إلا بإذن السلطان ! فظننا ه مازحا ثم أقلقنا ذلك وذهبنا لنخرج ، فدفع البوابون فى صدورنا ، فإذا نحن أعظم الناس داهية وأجلهم بلية : لا يعرفنا أحد ولا نعرف أحداً . فلبثنا بذلك من حالنا حتى رفعنا أمرنا إلى المزنى الفقيه (تلميذ الإمام الشافعى) وذكرنا له مذهبنا فى الخير وقصدنا إليه فى طلب العلم . فتردد على صاحب مصر حتى يسّر الله إطلاقنا » .

وهى قصة طريفة نرى كيف أودع أصحاب اليسر الأندلسيون السجن بغير جريرة إلا أداء فرض من فروض

المروءة ونرى كيف توسط لهم ذلك الفقيه الجليل المزنى حتى أخرجهم من السجن . ولعله توسط أيضاً لصاحبهم أبى اليسر .

على أن الذى نعرفه بعد ذلك هو أن أبا اليسر لم يلبث أن ظهر فى القيروان بعد سنة ٢٦١ بقليل ، وإذا به يعهد إليه بمنصب من مناصب الكتابة فى ديوان الرسائل على عهد الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد . ويظهر أنه ألقى عصاه فى القيروان وأنه انتظم فى الدعوة العبيدية السرية ، وكانت هذه الدعوة قد نشطت نشاطا عظيما فى إفريقية منذ دخول الداعى أبى عبد الله الشيعى فى سنة ٢٨٠ (٨٩٣) فاستطاعت أن تجند فى صميم إدارة الدولة الأغلبية عددا كبيرا من الدعاة والجواسيس استعانت بهم على هدم الدولة من داخل . وحينما توفى إبراهيم ابن الأغلب وولى إمارة إفريقية ابنه أبو العباس عبد الله فى سنة ٢٨٩ (٩٠٢ — ٩٠٣) ظل أبو اليسر على حاله فى ديوان الرسائل ، بل عهد إليه الأمير الجديد بإدارة « بيت الحكمة » الذى كان شبيهاً بدار الحكمة التى أنشأها المأمون العباسى فى بغداد . وكان ملتقى للعلماء والفلاسفة والأطباء الذين نهضوا بالعلوم والآداب نهضة كبيرة فى القيروان . هذا وإن كانت أحوال الدولة الأغلبية تسير من سيئ إلى أسوأ ، حتى تأتى نهايتها المرتقبة فى عهد زيادة الله آخر ملوك الأغالبة فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ (مارس ٩٠٩) ، وذلك بدخول الداعى الفاطمى أبى عبد الله الشيعى القيروان وفرار زيادة الله إلى مصر .

ولم يلبث أبو عبد الله الشيعى بعد انتصاره الكبير أن توجه على رأس حملة قوية لاستنقاذ إمامه عبيد الله المهدى الذى كان قد قبض عليه وأودع سجن سجلماسة فى أقصى جنوبى المغرب ، وكانت سجلماسة هى حاضرة ملك بنى مدرار الخوارج . ويلفت النظر فى وصف المؤرخين لموكب أبى عبد الله أنه كان على رأس رجاله صاحبنا أبو اليسر الشيبانى . الذى أصبح معدودا من وجوه رجال الدعوة

العبيدية . وقد اخترق أبو عبد الله بجيوشه المغرب الأوسط ، ففتح فى طريقه مدينة تاهرت جنوبى الجزائر وأزال ملك الرستميين ، ثم واصل مسيرته حتى اقتحم سجلماسة وأخرج الإمام عبيد الله المهدى من سجنه وقدم له رجال دعوته ، ولم يكد الإمام بعد خروجه ووصوله إلى مقر ملكه فى القيروان حتى عهد بكتابته العليا ورياسة ديوان الرسائل لأبى اليسر الشيبانى ونعرف بعد ذلك أنه ظل مقرباً لعبيد الله عظيم الحظوة لديه حتى أصبح يعد أجل وزرائه إلى أن حانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ٢٩٨ (يناير سنة ٩١١) ودفن فى باب سلم بالقيروان ، وكانت هذه مقبرة يدفن فيها كبار رجالات الدولة .

هذه هى قصة أبى اليسر الرياضى الشيبانى التى نرى منها كيف كان نشاطه السياسى : أديباً محتالاً مغامرا وعميلا سريا وجاسوساً للعبيديين وأخيرا كاتباً ووزيرا لأول خلفاء هذه الدعوة التى قدر لها أن تحكم إفريقية (تونس) ستين سنة قبل أن تنتقل إلى مصر فتتخذها قاعدة لخلافتها على مدى قرنين من الزمان .

أما نشاط أبى اليسر فى التأليف الأدبى فقد ذكرت المصادر عديدا من كتبه نذكر منها كتاب « سراج الهدى » فى القرآن الكريم ومشكله وإعرابه ، ومسندا فى الحديث ، وكتابين فى الأدب هما « لقيط المرجان » وهو كتاب يصفه ابن الأبار بأنه أكبر من « عيون الأخبار » لابن قتيبة . و « قطب الأدب » ، فضلاً عن مجموعة من الرسائل نذكر منها « المرصعة » و « المدبجة » وأخيرا « الرسالة الوحيدة المؤنسة » . ونظن أن هذه الرسالة هى نفسها التى أطلق عليها بعد ذلك اسم « الرسالة العذراء » . وإنما أتى هذا العنوان من قوله فى آخرها : « . . . وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معانٍ لم تفترعها بلاغة الناطقين ولا لمستها أكف المفوهين . . فاجعلها مثلا بين عينيك ، وصورة بين يديك . ومسامرة لك فى ليلك

ونهارك » ، فوصفه للرسالة بأنها « عذراء » يتفق مع تسميته ابن الأبار لها بأنها « الوحيـدة » ونصحه لصديقه الذى وجهها إليه بأن يجعلها « مسامرة له » يتفق مع وصفها الآخر الذى أضافه ابن الأبار لها حينما سماها « المؤنسة » .

وبعد ، فقد بقيت هناك حجج كثيرة فى داخل نص « الرسالة العذراء » تشهد بأنها لا يمكن أن تكون من تأليف ابن المدبر ولا تتفق مع ما نعرفه من ملامح شخصيته .

كذلك نشير فى النهاية إلى أن أبا اليسر قد أعقب ابناً اسمه يزيد (أو بُرَيَّة) جرى على نهج أبيه فى خدمة الدولة الفاطمية ، فقد كان من كتاب المعز لدين الله الفاطمى فاتح مصر وظل فى منصبه هذا حتى وفاته فى سنة ٣٤١ (٩٥٢) . وللمعز صنَّف كتاباً فى الأمثال فى ١٥٧ باباً من الأبواب القصار وسماه « تلقيح العقول » وهو كتاب اعتمد عليه المؤلف المصرى ابن ظافر الأزدى المتوفى سنة ٦١٣ (١٢١٥) ، فنقل عنه فى عديد من المواضع فى كتابه « بدائع البدائه » ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة فى مكتبة ليدن بهولندا .

محمود على مكى
عضـــو المجمع